سوسيولوجيا ماكس فيبر

حياته الفكرية والعلمية:

يعتبر ماكس فيبر من أبرز علماء الاجتماع في العصر الحديث، ولد في إرفورت Erfurt بألمانيا سنة 1864 درس الحقوق والاقتصاد والتاريخ والفلسفة واللاهوت. تقلد عدة مناصب سياسية واجتماعية وعلمية أبرزها توليه إدارة أرشيف العلوم الاجتماعية والسياسية وتأسيسه مع ثلة من الباحثين مجلة سوسيولوجية تحمل نفس الاسم، وبها ستظهر أغلب أعماله في البحث السوسيولوجي.

توفي 1920 تاركا وراءه أعمالاً غزيرة مرتبطة بمنهجية العلوم الاجتماعية وبالتاريخ الاقتصادي وبسوسيولوجيا الأديان، إلخ، ومن أبرز مؤلفاته: "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" وكذا "الاقتصاد والمجتمع". حيث أصبح فيبر من خلال هذين العملين - وأعمال أخرى بالتأكيد - مرجعا كلاسيكيا لا محيد عنه لأي باحث متخصص في الدراسات السوسيولوجية والإنسانية عموما.

السوسيولوجيا: التعريف، الموضوع، المنهج

يرى ماكس فيبر أن السوسيولوجيا هي علم يدرس الفعل الاجتماعي، وهو بهذا يحدد موضوعها في دراسة "الأفعال الفردية ضمن نسق اجتماعي معين بالتركيز على علاقات التأثير والتأثر، ودراسة مختلف أنماط التفاعل الاجتماعي في علاقة ببنية المجتمع". فهو يرفض الحتمية التي يمتدحها ماركس ودوركايم اللذان يحبسان الإنسان ضمن نسيج من الضغوط الاجتماعية غير الواعية، فالمجتمع حسب فيبر هو نتاج لفعل الأفراد الذين يتصرفون تبعا للقيم وللدوافع وللحسابات العقلانية. وبناء عليه، فالمنهج الملائم لدراسة الفعل الاجتماعي هو منهج الفهم يقول فيبر "إن ما ندعوه سوسيولوجيا هو علم مهمته الاستيعاب (الفهم) عن طريق تأويل النشاط الاجتماعي".

أنماط النشاط الاجتماعي وأشكاله عند ماكس فيبر:

يعتمد تصنيف فيبر لأنماط النشاط على شرط إبستيمولوجي مزدوج: أولوية الفهم والطابع الكوني. فالمعيار في تحديد النشاطات الاجتماعية ليس فعاليتها الموضوعية، بل المعنى الذاتي الذي يمنحه لها الفاعل. ويُعدّ السلوك نشاطا فقط إذا أضفى عليه الفاعل معنى، ويصبح اجتماعيًا حين يوجّه هذا المعنى نحو علاقة بالآخرين.

يفترض مبدأ الكونية عند فيبر أن الفهم يمكن أن يشمل كل الثقافات، مما يستلزم وجود نوع من الوحدة في الدلالات التي توجه النشاط الاجتماعي. ويصنف فيبر النشاط إلى أربعة أنماط:

- ✔ **الفعل العقلي الغائي،** ويهدف إلى تحقيق غايات عبر وسائل محسوبة (المهندس أو المضارب أو الجنرال).
- ✔ **الفعل العقلي القيمي،** يحركه الإيمان بقيمة مطلقة كالكرامة أو الواجب، دون اعتبار للنتائج.
- ✔ **السلوك التقليدي،** يستند إلى العادات الموروثة دون وعي نقدي.
- ✔ **السلوك العاطفي،** هو رد فعل لحالة انفعالية، لا يخضع للعقلنة.

إن هذه الأشكال الأربعة للنشاط لا يمكنها إذن أن توضع بدقة في نفس المستوى، وهنا يشير فيبر إلى أن الفعلين العقليين يرتبطان بالفهم والدلالة، بينما يقع التقليدي والعاطفي في هامش النشاط العقلاني، ويقتربان من اللاوعي أكثر من الوعي.

<u>سوسيولوجيا ماكس فيبر</u>

تعد مساهمة ماكس فيبر السوسيولوجية من بين أهم المساهمات العلمية والنوعية في تاريخ علم الاجتماع والتي انتظمت حولها مختلف الدراسات السوسيولوجية، إما استثمارا لمفاهيمها وتصوراتها ومقاربتها المنهجية أو نقدا وتقويما لاختياراتها الفلسفية والعلمية. حيث تتمثل إسهامات ماكس فيبر، بالخصوص، في تقديمه للأساس الفلسفي والنظري للعلوم الاجتماعية الناشئة، مثلما نستشفه في دراساته المختلفة حول الاقتصاد والمجتمع والدين والمجتمعات القديمة والسياسة وغيرها.

وعلى خلاف السعي الحديث للاتجاه الوضعي نحو موضعة الظاهرة الإنسانية تبعا لنموذجية المنهج التجريبي، الذي خطا بالعلم الطبيعي خطوات مهمة في سبيل اكتشاف العالم وتملكه اعتمادا على آليات الملاحظة والاستقراء والتكميم والتعميم، فإن اتجاه الفهم بمنظوره الفينومينولوجي ارتكز بالأساس على بيان خصوصية الظاهرة الإنسانية وطابعها الذاتي والكلي غير قابل للتجزيء، وإمكانية معرفتها علميا من الداخل، دون اللجوء إلى عملية الاسقاط التعسفي للمنهج التجريبي على موضوع مخالف تماما لأشياء الطبيعة.

على هذا النحو سيتم التمييز بين الظواهر عموما وبين الوعي الذاتي الذي يضطلع بإدراكها، حيث تنكشف الكيفية التي يتم بها إدراك العالم من قبل الذات، وفهم الأفعال الاجتماعية في سياقها التاريخي، عوضا عن البحث عن القوانين العامة الناظمة لها سيرا على نهج علوم الطبيعة.

على هذا النحو سيتم النظر للاتجاه الوضعي على أنه مرحلة ما قبل العلم، أو مرحلة وسطى بين الأفكار الاجتماعية وعلم الاجتماع. بما يقتضي تخطي عتبة استحداث مسافة معينة بين الذات العارفة وموضوع المعرفة، لما تفضي إليه من إلغاء مقومات الظاهرة الإنسانية وخصائها المميزة لها، الأخلاقية منها، أو العقلية والنفسية لحظة إحالة الموضوع المدروس على عالم الأشياء والجماد. لتخطي ذلك، سعى فيبر إلى إدراك الموضوع المدروس انطلاقات من الدلالات والمعاني التي تضفيها الذات المدروسة على أفعالها، والكشف عن شبكة العلاقات الناظمة لها، حيث العلاقة بين الذات الباحثة وموضوع المعرفة يقوم على الاتصال لا الانفصال. لذلك سيتم النظر لمنهج الفهم الفيبري على أنه تلك "لسيرورة التي نعرف بواسطتها ما هو نفسي باطني اعتمادا على علامات حسية، تعتبر تجليا أو مظهرا لها" [1] .

وبهذا المعنى، يتصل إدراك الظواهر والأفعال والأحداث، بالنسبة لماكس فيبر، بالبداهة والوضوح، ما دام الفهم فعل معرفي مباشر، يتيح لنا إمكانية إدراك دلالة معيشية تعطى لنا كتجربة بديهية، ووضعية وجودية، تبعا لمقاصد الفاعلين الاجتماعيين، وتأويلاتهم المحددة لمختلف الأقوال والإشارات والأفعال. بما يجعل الفهم بداهة مباشرة (أفهم العلاقة بين الغضب وتلقي الضربات أو اللكمات)، في حين أن "التفسير هو تبرير وتعليل لبروز

[1] Dilthey,M. (1947). Le monde de l’esprit, T1. Paris, Aubier-Montagne, p 321.

ظاهرة اجتماعية بافتراض ظاهرة أخرى"[2]. على هذا النحو فنحن نفهم الحياة الإنسانية ونفسر الطبيعة.

ترتيبا على ما سبق، ذهب ما كس فيبر إلى أن موضوع سوسيولوجيا الفهم يتمثل في دراسة الأفعال الإنسانية والاجتماعية التي يتم إدراكها بناء على موقف عقلي محدد، أساسه الفهم والتأويل بغرض الكشف عن المعاني والدلالات التي يضفيها الفاعلون الاجتماعيون على علاقاتهم، والأحداث والوقائع الناظمة لحياتهم. ثم العمل على تفسير الكيفية التي يؤثر بها التأويل والدلالة والمعنى على فعلهم.

يقصد بالفعل الاجتماعي ذلك السلوك الإنساني الذي الي يضفي عليه الفاعل معنى، أو الفعل الذي يوجهه اتجاه الأشخاص الآخرين. ومن ثم فهم الدوافع التي دفعت الأفراد للتصرف والفعل.

- **النماذج المثالية للفعل**

في سعيه لتحديد طبيعة الفعل الاجتماعي وتنميطه، ارتأى ماكس فيبر استعمال النماذج المثالية، بوصفها أداة عقلية ومنهجية في التفكير السوسيولوجي. وبما أن عالم الاجتماع ملزم بفهم الظواهر الاجتماعية وتفسيرها، وبالنظر إلى تعدد أسبابها واختلافها، يدعو فيبر إلى تشييد نماذج مثالية لضبطها وتبسيط أبعادها الاجتماعية. وهي العملية العقلية والمنهجية التي لا تتأتى إلا من خلال القيام بضبط المقومات الأساسية في الظاهرة الاجتماعية، في مقابل التخلص من المظاهر الزائدة وغير الناظمة لها. مما يتيح للباحث القدرة على الكشف عن منطق الأفعال الاجتماعية، أو عن حقيقة تاريخية معينة.

وقد خلص ماكس فيبر، من خلال دراساته السوسيولوجية إلى أربع محددات للفعل الاجتماعي، تحوي كلها العوامل الممكنة التي على أساسها يتصرف الفاعلون الاجتماعيون، إثنان منها لا تصدر عن تفكير، وإثنان مفكر فيهما من قبل الفاعلين.

- فعل تقليدي (عرفي)
- فعل عاطفي (انفعالي)
- فعل عقلاني بالقيمية الموجهة للفعل

[2] Monnerot, Jules. Les faits sociaux ne sont pas des choses. Paris, Gallimard, p 41-42

- فعل عقلاني بالغاية المحددة للفعل.

- **الحياد الأكسيولوجي**

وهو عبارة عن تصور منهجي خاص بلوره ماكس فيبر عن العلوم الاجتماعية، بوصفه التزاما أخلاقيا من قبل الباحث، يقتضي منه إقامة تمييز دقيق بين تحليله الأمبريفي للظواهر، وبين مقولاته الذاتية وتفضيلاته المعيارية المحكومة بالنعرات السياسية والثقافية والدينية.

فالحياد الأكسيولوجي بهذا المعنى، هو موقف أو وضعية منهجية وعقلية تتيح للباحث اكتساب الوعي إزاء قيمه وأحكامه وآرائه لحظة دراسته للظواهر الاجتماعية، بهدف التمييز بين الخطاب الأخلاقي والخطاب العلمي السوسيولوجي، بسبب انتماء الباحث للمجتمع ولفئات اجتماعية محددة، ولقيم ثقافية وعقدية ناظمة لها مما قد يعرض البحث السوسيولوجي، في إحدى مراحله، لتأثيرات إيديولوجية تحول دون تحقيق شرط الموضوعية، خصوصا عند دراسة بعض المواضيع المحددة كالجنس والدين والسياسة، حيث تتم إثارة الدلالة القيمية لها، وما يتصل بها من تحيز وميل مقارنة بالحياد المفترض في الباحث. والذي يقتضي منه التزاما أو حيادا قيميا لحظة صياغة فروضه ومفاهيمه.

- **العقلنة ونزع النظرة السحرية عن العالم:** (Rationalisation et désenchantement)

يقصد ماكس فيبر بنزع النظرة السحرية عن العالم قدرة الباحث السوسيولوجي على ضبط كل المظاهر اللاعقلانية المعيقة للتفكير العلمي حول الظواهر الاجتماعية، والناجمة عن شيوع الممارسة السحرية والتقليدية، والقائمة على تنميط ثقافي للحياة الاقتصادية والتقنية للأفراد.

تتمثل تلك السيرورة خصوصا في فقدان العالم لجاذبيته وبعده العجائبي[3]، لما توقف عن أن يكون ملغزا، على خلاف ما حاولت مختلف أنماط المعتقدات أن تعززه متوسلة الأساطير والحكايات والأقاويل الخرافية. مما ترتب عنه فقدان الإنسان لروحه العقدي، ولثقته في نفسه وفي قدره وأوهامه، وآماله أيضا. والتي عوضها بعقلية الحساب والتنظيم المنهجي لمعارفه، والتخطيط والتوقع لأحواله الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. حيث لم

3

يعد إنسان العصر الحديث مثل البدائي الذي يكتفي بالتوسل لقواه الروحية والغيبية، وإنما صار يستند لقواه العلمية والتقنية، التي مكنته من تحويل المجتمع وتملك العالم.

لهذا يتصل حديث فيبر عن نزع النظرة السحرية عن العالم بحديثه عن تنامي العقلنة في المجتمع، والتي يميز فيها بين العقلنة الموضوعية والعقلنة الشخصية أو الذاتية؛ تتمثل الأولى في بناء المعارف العلمية الموضوعية عن العالم الاجتماعي والطبيعي، وفي قدرة الباحث على تحليل دوافع وانحرافات الفاعل في اختياره لوسائله، ما يجعل من السوسيولوجيا تلك الأداة الأساسية للعقلنة الموضوعية. في حين تتصل الثانية بسيرورة استدخال الذات للمعارف العقلية والعلمية، وبكيفية تعبئة الأفراد لأفعالهم استجابة مثلا لقيم الواجب أو الكرامة، أو إزاء قضية سياسية أو دينية لها أهمية بالغة بالنسبة له. وعلى هذا الأساس سعى ماكس فيبر إلى التمييز بين النشاط العقلي تبعا لغائيته وبين النشاط العقلي بناء على قيمته.

على هذا النحو يتخذ مفهوم désenchantement حسب جوليان فروند[4] معنى العقلنة بوصفه سيرورة موضوعية للمعرفة والفعل معا، ومعنى التثقيف (intellectualisation) بوصفه امتدادا للعقلنة كتمثل ذاتي، بغرض التخلص من كل التصورات السحرية لحظة السعي لفهم مختلف الوقائع الاجتماعية والمادية، وتخطي كل الأنماط الثقافية التقليدية (كالتطير والخرافة) الناظمة لحياة الناس في المجتمعات التقليدية، والارتكاز عوضا عنها على خطاب عقلاني كفيل بتملكها مفهوميا ونظريا.

وتبعا لمؤلفه "الاقتصاد والمجتمع"، فإن عقلنة الحياة الاجتماعية هي السمة الأكثر دلالة للمجتمعات الحديثة.

المنظور السوسيولوجي للسياسة:

تنبني تصورات ماكس فيبر حول موضوع السياسة انطلاقا من رؤيته السوسيولوجية لمفهوم الدولة ككيان سياسي مهيمن يحتكر العنف المادي. ومن ثم، تعني السوسيولوجيا السياسية إما علم الدولة أو علم السلطة. بيد أن علم الاجتماع السياسي عند ماكس فيبر

[4] Freund, J. (1981). Etudes sur Max Weber. Genève, Librairie DROZ S.A, P 84.

علـم السلطة والحكومة والولاية والقيادة في كل المجتمعات والمجموعات البشرية وليس فقط، في المجتمع القومي.

في كتابة الاقتصاد والمجتمع عالج فيبر عدة أنماط من العلاقات الاجتماعية وخاصة أشكال الهيمنة السياسية، وحدد أشكال السلطة والهيمنة في ثلاثة أنواع:

- ✔ **الهيمنة التقليدية** وتؤسس مشروعها على الصفة المقدسة للتقاليد، فالسلطة الأبوية في المجتمعات الأبيسية، وسلطة الأسياد في المجتمع الإقطاعي تنتميان إلى هذه الفئة.
- ✔ **الهيمنة الكاريزمية** هي هيمنة شخصية استثنائية ذات حالة خاصة، يؤسس الزعيم الكاريزمي سلطته على قوته في الإقناع وقدرته على تجميع وحشد الجموع. فالعوامل الوجدانية مهمة في طاعة الزعيم.
- ✔ **الهيمنة "الشرعية - العقلانية"** تستند إلى سلطة القانون القطعي الصريح وغير الشخصي، وهي مرتبطة بالوظيفة وليس بالشخص. والسلطة في التنظيمات الحديثة تقوم على مبدأ الكفاءة وعقلانية الخيارات. وتمثل الإدارة البيروقراطية النمط الخالص للهيمنة الشرعية.

سوسيولوجيا الدين عند ماكس فيبر:

قام ماكس فيبر بمجموعة من الدراسات المؤسسة لسوسيولوجا الدين، ومن أبرزها الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، حيث أثارت هذه الدراسة جدلا واسعا في حياة فيبر وكذلك بعد مماته، ولم يكن يقصد في هذه الدراسة أن يضع العوامل الروحية في مواجهة المادية التاريخية، بل أراد أن يوضح كيف تؤدي عملية تقويم العمل إلى عقلنة السلوك الاقتصادي لدى الشرائح الاجتماعية العليا وكذلك لدى الشرائح الوسطى من صغار رجال الأعمال. فقد رأى أن الأخلاق البروتستانتية ساهمت في ظهور النظام الرأسمالي في أوروبا الغربية. وعند دراسته للأديان الكبرى ومقارنته توصل إلى أن الأفكار المسيحية وخاصة المذهب البروتستانتي كان له تأثير إجابي في تطور الاقتصاد الرأسمالي في أوروبا

الغربية والولايات المتحدة الأمريكية. وترتكز سوسيولوجيا الأديان عند ماكس فيبر على ثلاثة تصورات جوهرية: أثر الأفكار الدينية على الأنشطة الاقتصادية؛ والعلاقات الموجودة بين التراتبية الاجتماعية والأفكار الدينية؛ والخصائص المميزة للحضارة الغربية.